ديوان السليمانيات

(قصيدة)

لو كان له رجال (الحاجب المنصور)

نحو شعر عربي أصيل وهادف وبناء وجاد ومحترم

شعر

أحمد علي سليمان عبد الرحيم

جميع الحقوق محفوظة

لو كان له رجال! (الحاجب المنصور)

(أروع ما يكون الشعر عندما تكون له قضية ورجال!)

ديوان: (السليمانيات)

شعر / أحمد علي سليمان عبد الرحيم

(شاعر أهل الصعيد)

جميع الحقوق محفوظة

لو كان له رجال!

(تحية شعرية للبطل الحاجب المنصور بن أبي عامر!)

(لما قرأ روجيه جارودي عن الإسلام عقيدة وشريعة ورجالاً وتاريخاً قال كلمته الشهيرة التي لم يكن هو أول القائلين بها: (إن الإسلام لدينٌ عظيمٌ لو كان له رجال!) ويعجبني هذا القول وإن كنتُ أخالفُ عنه! ذلك أن جارودي علّق عظمة الإسلام بالرجال المسلمين! وأقول: (إن الإسلام لدينٌ عظيمٌ سواءً كان له رجالٌ يُنافحون عنه ويدعون له ويُجاهدون في سبيله أم لم يكن!) إن عظمة الإسلام تكمن فيه: في عقيدته ، في توحيده ، في شريعته ، في أحكامه! وإنه لشرفٌ كبيرٌ جداً للشاعر أن يتناول في شعره العظماءَ وصناعَ الحضارة وبُناةَ القيم من الرعيل المسلم الأول! وإنه لشرف كبير جداً لديوان الشعر أن يشيد بهم وبأخبارهم وبإسهاماتهمُ الفذة في صناعة الحضارة وبناية القيم وترسيخ المبادئ! وإنه لشرف كبيرٌ جداً للشعر أن تسخر قصائدُه لذكر هؤلاء الأفذاذ المغاير الأشاوس ، والإشادة بأعمالهمُ وأخلاقهم! وواحدٌ منهم هو البطل المجاهد قاهر الصليبيين أبو عامر محمد بن أبي عامر (وكانت ولادته المباركة في الجزيرة الخضراء 327 - 938م / مدينة سالم 392 هـ - 1002 م) ، المشهور بلقب الحاجب المنصور ، وهو عسكريٌ وسياسيٌ أندلسي ، وكان مستشاراً للخلافة الأموية في الأندلس ، وحاجب الخليفة هشام المؤيد بالله والحاكم الفعلي للخلافة. ولد كما قلنا في قرية على مشارف طرش من عائلةٍ ذات أصول يمنية ، ذهب شابًا إلى قرطبة لتعلم الفقه. وبعد بدايات متواضعة ، دخل القصر وتدرَّج في المناصب في عهد الخليفة الحاكم المستنصر بالله ، ونال ثقة زوجة الخليفة صبح البشكنجية أم الخليفة هشام المؤيد بالله ، والتي كانت وصية على عرش ولدها بعد وفاة زوجها الحكم. وبفضل الله تعالى أولاً وآخراً ، ثم بفضل هذه الحماية وكفاءته ، قام بسرعة بجمع العديد من المناصب. فقد شغل خلال خلافة الحكم الثاني مناصب إدارية مهمة ، مثل مدير دار سك العملة ، ووكيلاً لعبد الرحمن أول أولاد الخليفة ، ثم وكيلاً لهشام بعد وفاة عبد الرحمن. وولي خطة المواريث ، فقاضيًا على أشبيلية ولبلة وأعمالهما. كانت وفاة هذا الخليفة عام 976 إيذانا ببدء عهد الخلافة الذي سيطر عليها. فقد عاونت صبحُ الحاجبَ المنصورَ على إقصاء جميع منافسيه ، وهو وما أحسن استغلاله لأبعد مدى ، بل وذهب إلى أبعد من ذلك بأن حجر على الخليفة الصبي ، وقيّد سلطته هو وأمه. بصفته حاجباً للخلافة ، فقد مارس سلطة غير عادية في الخلافة الأندلسية ، في جميع أنحاء شبه الجزيرة الأيبيرية وفي جزء من المغرب العربي. وقام بتأسيس دولة داخل دولة ، وعُرفت تلك الدولة باسم الدولة العامرية ، وتمثَّلت بفترة حجابته للخليفة المؤيد بالله هو وأبناءه: عبد الملك المظفَّر وعبد الرحمن شنجول ، وقام بإرساء قواعد الحكم لأبنائه ، إلا أن الأمر لم يستمر طويلاً حيث انتهت سيطرتهم على حكم الأندلس بعد أقل من عقد من الزمن على وفاته ، بعد أن ساد الأندلس فترة من الاضطرابات التي نتجت عن التصارع على الخلافة. بعد أن تمكن الحاجب المنصور من مقاليد الحكم التفت إلى توسع الدولة شمالاً ، فحرّك بحملاته العسكرية حدود الممالك النصرانية في الشمال إلى ما وراء نهر دويرة ، فبلغت الدولة الأموية في الأندلس أوج قوتها في عهده. فقد نجحتْ غزواته ضد الممالك النصرانية ، وفي وقف تقدمهم نحو الجنوب مؤقتًا. وعلى الرغم من انتصاراته العسكرية الوفيرة ، إلا أنه بالكاد استعاد الأراضي. إنه البطل الذي قل أن يجود الزمان بمثله! ولكأن أرحام النساء قد عقمت في زمانه عن أن تلد مثله! إنه أبو عامر

محمد بن أبي حفص عبد الله بن محمد بن عبد الله بن عامر بن أبي عامر محمد بن الوليد بن يزيد بن عبد الملك المُعافري. لقد كان من حسن حظه أنه تربى في بيت من أعيان تلك المدينة. وكان أبوه عبد الله من أهل التقى والورع ، وقد مات في رحلة عودته من الحج ودفن في طرابلس. وأما أمه فهي بُريهة بنت يحيى بن زكرياء التميمي ، وهي الأخرى من أهل بيت من أشراف قرطبة يسمون ببني برطال. وأما جده لأمه فهو يحيى بن إسحاق وزير وطبيب الخليفة عبد الرحمن الناصر لدين الله. وجده عبد الملك المعافري كان من الداخلين للأندلس مع طارق بن زياد. ونال مكافأة على أدائه المتميز في فتح كارتيا بأن نال مزرعة في طرش ، التي تتبع كورة الجزيرة الخضراء بالقرب من مصب نهر جواديارو. ومع ذلك كانت الأسرة متوسطة الحال ومتواضعة وريفية. ولقد قدم محمد بن أبي عامر إلى قرطبة شابًا لطلب العلم والأدب والحديث ، فدرس الأدبَ على يدي أبي علي البغدادي وأبي بكر بن القوطية ، ومعنى دراسته للأدب أنه درس اللغة العربية شعرها ونثرها ونحوها وصرفها وبلاغتها وبديعها وإبانتها ، كما درس الخطابة والكتابة ، وأتقن لغة الحوار والمناظرة في سِن مبكرة! ودرس الحديث على يدي أبي بكر بن معاوية القرشي راوي النسائي. ولكنّ وفاة والده وظروف الأسرة السيئة أدت إلى تخليه عن دراسته ، وبدأ في ممارسة مهنة كاتب عدل. فبدأ حياته بفتح دكان بجوار قصر الخليفة ومسجد قرطبة يكتب فيه الرسائل والعرائض لأصحاب المصالح ، فلفت نظر من في القصر بأسلوب كتابته وبجزالة عباراته. والتحق ابنُ أبي عامر بخدمة الخليفة الحكم المستنصر بالله ، عندما رشحه الحاجبُ جعفر بن عثمان المصحفي ليكون وكيلاً لعبد الرحمن أول أولاد الخليفة ، وهو ما عينه عليه الخليفة بموافقة من أم عبد الرحمن صبح البشكنجية ، فعُيّن لذلك في 9 ربيع الأول 356 هـ ، ثم ولاّه دار السكة في 13 من شوال 356 هـ ، ثم ولي خطة المواريث في 7 محرم 358 هـ ، فقاضيًا على أشبيلية ولبلة وأعمالهما في 12 ذي الحجة 358 هـ. وبعد وفاة عبد الرحمن صغيرًا ، بقي مخلصاً متفانياً في خدمة أم الخليفة إلى أن أنجبت ولدها الثاني هشاماً ، فأصبح وكيلاً مخلصاً لهشام في 4 رمضان 359 هـ. وفي جُمادى الآخرة 361 هـ ، جعله الخليفة الحكم على الشرطة الوسطى. وفي هذا الوقت تقريبًا تزوّج من أخت رئيس حرس الخليفة. فبدأ يُثري نفسه ، فبنى لنفسه منزلًا في الرُصافة ، بالقرب من القصر القديم لعبد الرحمن الأول ، وفي فترة خِدمته لصبح البشكنجية ، لجأ إلى استمالتها بحُسن خدمتها وإتحافها بالهدايا ، والتي أشهرها نموذجًا مُبهرًا لقصر من الفضة أنفق عليه قدرًا كبيرًا من المال ، وأهداه إليها في الفترة التي ولي فيها دار السكة. مما أثار ذلك عددًا من رجال الدولة الذين رأوْا في صعوده في المناصب ما يقلقهم ، فاتُهِم لدى الخليفة بالاختلاس من مال السكة ، فأمر الخليفة بالتحقق من ذلك ، وكان ابن أبي عامر قد أنفق منه بالفعل ، فلجأ إلى صديقه الوزير ابن حُدير ليقرضه ما نقص من أموال السكة ، فأقرضه المال الذي سد به العجز. ولكن مع ذلك فقد عُزل عن منصب رئيس دار سك العملة في جمادى الأولى 361 هـ/ مارس 972 م ، ولكنه حافظ على باقي المناصب بما فيها الوكيل لولي العهد هشام المؤيد بالله. ثم أنفذه في شوال 362 هـ / 973 م بأموال كثيرة إلى المغرب ، حيث تم تكليفه بالجوانب اللوجستية والإدارية والدبلوماسية لحملة الخلافة ضد الأدارسة ولاستمالة زعماء البربر إلى جانبه ، ثم أرسل مرسومه بتوليته قاضيًا لقضاة عدوة المغرب. كانت أهمية الحملة في المغرب ، وكون المنصور قاضي إشبيلية ومسؤولاً عن منشآتها ، فسهّل ثقة الخليفة وحاجبه من نيله تلك المسؤولية. وأعطيتْ له سلطة الحكم على الأهالي والعسكر والإشراف الكامل على الحملة. ومن

مَهامه الأساسية استمالة أعيان المنطقة بالهدايا الرسمية لكسب ولائهم للخليفة. فكانوا إلى جانبه في انتصاراته العسكرية تقويض مواقع العدو. ولكنه بعد انتصاره على الأدارسة عاد مريضًا إلى بلاط قرطبة في ذي الحجة 363هـ / سبتمبر 974م. وبعد تعافيه استأنف مهامه. ولكنه لم يعد إلى شمال إفريقيا أبدًا. أتاحت له خبرته بالإشراف على القوات المجندة في الحملة المغاربية الفرصة لتقدير الفائدة السياسية المحتملة لهؤلاء إذا حقق سيطرته. فأقام علاقات مع زعماء القبائل في المنطقة ومع والد زوجته المستقبلي القوي غالب ، الذي أدار الجوانب العسكرية للعملية. لقد كانت قدرته على إدارة الجوانب التنظيمية والمالية للحملة ، معترف بها على نطاق واسع ومكافأتها بعدها بأشهر بإعادة تعيينه على رأس دار سك الخلافة ، وهو بداية نجاحه السياسي. وفي الأشهر الأخيرة من مرض الحاكم عيّنه قائداً للشرطة ، وهو المنصب الثاني بعد الوزير الأول المصحفي ، التي احتوى الجزء الأكبر منها من البربر الذين جلبهم الخليفة من المغرب لتشكيل قوة موالية له تضمن وصول ابنه الصغير إلى عرش الخلافة. وكانت وفاة الخليفة الحاكم الثاني في صفر 366 هـ / أكتوبر 976 م ، وإعلان ابنه هشام خليفة طفرة في حياة المنصور السياسية. كما أنه أيضًا مثل حدثًا حاسمًا في تاريخ الخلافة ، والتي منذ ذلك الحين تميزتْ بهيمنته واحتوائه التدريجي على الخليفة الأموي الثالث. وقد مرت الأندلس في ذاك الوقت بأزمة خلافةٍ خطيرة ، لأن الخليفة المعين هشام المولود سنة 354 هـ/965 م أصغر من أن يحكم ، فهو بالكاد بلغ ثماني أو تسع سنوات عندما ربطه والده بالحكم سنة 364 هـ / 974م ، وبالتالي كان قاصرًا عند وفاة والده. كان هذا وضعًا استثنائيًا لأنه لم يحدث من قبل أن كانت الإمارة أو الخلافة في يد قاصر. ورفضت بعض مدارس الفقه الإسلامي وصول قاصر إلى منصب الخليفة ، لكن التقليد الأموي الأندلسي عزز نقل الإرث من الأب إلى الابن. وعلى الرغم من جهود الحكم في سنوات حكمه الأخيرة من خلال ربطه به لضمان خلافته من بعده ، إلا أن البيئة العامة في ذلك الوقت كانت منقسمة. فالحاجب المصحفي أيد تعيين وصي على الخلافة ، بينما رغب الصقالبة إعطاء اللقب إلى المُغيرة عم هشام وهو في عمر السابعة والعشرين. فبعد وفاة الخليفة الحكم كان لدى صقالبة القصر خطة تهدف إلى تنحية وليّ العهد الصبي هشام ، وتولية عمِّه المُغيرة بن عبد الرحمن الناصر لدين الله بدلاً منه. وفي سبيلهم لتنفيذ ذلك ، استدعى زعماؤهم الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي وأنبأوه بخبر وفاة الخليفة ، ومخططهما بتولية المغيرة. تظاهر المصحفي بموافقتهم ، وعمل من جانب آخر على إفشال ذاك المخطط خشية أن يزيد نفوذ الصقالبة في القصر. انصرف المصحفي من القصر ، وقرر مع عدد من كبار رجال الدولة وزعماء البربر من بني برزال ، ضرورة التحرك السريع لإفشال هذا المخطط ، وكان القرار يقتضي قتل المغيرة بن عبد الرحمن نفسه لقطع السبيل أمام مخطط الصقالبة. تولى محمد بن أبي عامر تنفيذ ذلك القرار ، فاقتحم قصر المغيرة ومعه مائة جندي ، وأبلغه بوفاة الحكم وتنصيب هشام الثاني خليفة له ؛ فأظهر عم هشام الولاء له ، فتردد المنصور ولكن أصر المصحفي وطالبه بوجوب اغتيال المغيرة مهما كان الأمر قائلاً: «غررتنا من نفسك ، فأنفذ لشأنك أو فانصرف نرسل سواك». فدفع إليه المنصور برجال فقتلوه خنقا أمام زوجته ثم شاعوا أنه قتل نفسه وكان عمره يومئذ 27 سنة. وهكذا انتهي الأمر بقتل مرشح الصقالبة ، وتنصيب ولي العهد هشام خلفًا لأبيه. حيث اعتمد المصحفي على الحرس البربر الذي أنشأه الحكم لابنه لمواجهة الصقالبة. فدبت بعدها الوحشة بين الحاجب المصحفي والصقالبة بعد فشل مخططهم ، فبدأوا في كيد المؤامرات ضده ، فلجأ إلى تقسيمهم ، فكان

نصيب ابن أبي عامر منهم خمسمائة فتى. ولكي يستميلهم أغدق المنصور عليهم وأجزل لهم العطاء ، فأحبوه واستقوى بهم ، ثم ما لبث أن انضم إليه بنو برزال وهم من زعماء البربر وصاروا تحت قيادته ، فاشتدّت بهم قوته. استلم هشام الثاني الخلافة في صفر 366 هـ / أكتوبر 976 م ولقب المؤيد بالله. وشارك المنصور في مراسم جمع الأعيان لأداء قسم الولاء أمام القاضي. وبعدها بستة أيام عين هشام المصحفي حاجباً والمنصور مندوبًا للحاجب ، وقد بلغ من العمر حينها 36 عامًا. والمنصب ذو أهمية فريدة كحلقة وصل بين والدة الخليفة الجديد - بممارسة إدارة الحكم أمام الصبي هشام - والإدارة التي رأسها المصحفي ، المُكونة منه والمنصور وغالب قائد الجيش. ولتحبيب السكان بالخليفة الجديد وتعزيز مكانته بينهم ، ألغيت ضريبة زيت الزيتون التي كان الناس بقرطبة يشكون منها. فبينما تمكن تحالف المصحفي والمنصور من تقويض قوة الصقالبة التقليدية في البلاط ، إلا أن سرعان ما تدهورت العلاقات بينهما. فقد عجز الحاجب من مواجهة أزمة هيبة الخلافة بسبب مكائد التوريث والتوغلات النصرانية التي كادت أن تصل سنة 365 هـ / 976 م إلى العاصمة قرطبة. فقد هاجمت كونتية قشتالة قلعة رباح بين طليطلة وقرطبة ، مستغلة ظروف التناحر السياسي في العاصمة بعيد وفاة المستنصر. ولم تدرك قشتالة أنها خدمت في هجومها هذا مصلحة المنصور، ونقلته إلى القمة بشكل غير مباشر. فقد كانت المحنة التي نزلت بالقلعة في منتهى الشدة ، وتركت صداها في العاصمة ، دون أن يحرك الحاجب ساكناً. فأشار ابن أبي عامر على المصحفي أن يقود الجيش لمنازلتهم ، فجهزه بمائة ألف دينار ، وأمره بقيادة الجيش. فقد كان المنصور على عكس الحاجب ، يميل إلى الرد العسكري على الغارات النصرانية وكان على استعداد لقيادة الجيش للانتقام. في حين كان المُصحفي يميل إلى استراتيجية دفاعية في الرد العسكري. وعلى الرغم من القوة العسكرية لقرطبة ، إلا أنها كادت أن تسلم الأراضي الواقعة شمال نهر يانة إلى الدول النصرانية. وبفضل تأثير صبح حصل غالب الناصري على حكم الثغر الأدنى وقيادة جيوش التخوم. وفي 3 رجب 366 هـ / فبراير 977م غادر العاصمة في حملته الأولى نحو أراضي قشتالة ، حيث لا يزال يتبع استراتيجية احتواء الدول النصرانية التي تم الحفاظ عليها خلال العهد السابق. ففي تلك الحملة حاصر حصن الحامة ، وتمكن من نهب ضواحي شلمنقة بانيوس دي ليديسما وأسر ألفي سجين أحضرهم إلى قرطبة بعد 53 يومًا ، على الرغم من أنه لم يستولي على أي حصن. فتعززتْ مكانته داخل الدولة ليبرهن أمام الشعب قدراته العسكرية إضافة إلى ما عرفوه من قدراته الإدارية. بعد عودته إلى قرطبة ، بدأ محمد بن أبي عامر في التخطيط لإزاحة الحاجب جعفر المصحفي من طريقه إلى قمة السلطة ، فاستغل سوء العلاقات بين جعفر المصحفي وغالب الناصري صاحب مدينة سالم بسبب اتهام جعفر لغالب بالتقصير في الدفاع عن الحدود الشمالية أمام حملة الممالك النصرانية في الشمال على حدود الدولة بعد وفاة الخليفة ، كما استغل حسن علاقته بصبح أم الخليفة التي كانت تساعده على إنفاذ ما بدا له من مراسيم باسم الخليفة ، وشاعت شائعاتٌ مغرضة بأن حبًّا عظيمًا نشأ بين صبح ومحمد بن أبي عامر ، حتى ذهب البعض إلى زواج ابن أبي عامر من أم الخليفة في السر. وفي يوم الفطر عام 366هـ /976م خرج المنصور بجيشه والتقى بجيش غالب في مجريط ، وافتتحا معًا حصن مولة وغنما فيها الكثير ، وكان فضل الانتصار يعود إلى غالب ، ولكنه تنازل ونسب الانتصار للمنصور وبعث للخليفة ينبئه بحسن تدبير المنصور في تلك الحملة ، فارتفعت أسهمه لدى القصر والعامة على حد سواء. ثم أقنع حليفته صبح أم الخليفة ، باستصدار مرسوم خلافي من

ابنها بعزل محمد بن جعفر المصحفي من حكم ولاية قرطبة ، وتوليته حاكمًا عليها بالإضافة إلى منصب قائد جيش المدينة. وبذلك سيطر تماماً على الجيش والحكومة معاً ، وكانت المدينة حينها تعاني من اضطرابات أمنية وذيوع الفساد والفسق ، فضبط أمرها. ولجأ جعفر لوسيلة يوقف بها هذا التحالف بين غريميه غالب والمنصور ، بأن طلب يد أسماء بنت غالب للزواج من ابنه محمد بن جعفر ، فأسرع المنصور لإفشاله بأن طلب أسماء لنفسه ، وهو ما وافق هوى غالب فأنكحها له ، فتم الزواج في شهر محرم 367 هـ / 977م. وفي صفر من نفس العام خرج المنصور في غزوته الثالثة ، فاجتمع بصهره غالب في طليطلة ، فتوجها نحو مدينة شلمنقة وما جاورها ، فاقتحما حصن المال وحصن رنيق ، وعادا سويًا من تلك الحملة إلى قرطبة بالغنائم ، حيث تم زفافُ أسماء إلى ابن أبي عامر من قصر الخلافة ، وأصدر الخليفة أمره برفع القائد غالب لرتبة الحجابة بالمشاركة مع الحاجب جعفر المصحفي ، وهو ما عدّه جعفر انتقاصًا من سلطته. وفي 13 شعبان 367 هـ / 26 مارس 978م أتت نكبة الخليفة لجعفر المصحفي بأن أصدر مرسومه الصارم بإقالة الحاجب جعفر المصحفي ، وسجنه هو وأبنائه وأقاربه ومصادرة أموالهم. شدّد المنصور في التنكيل بالمصحفي والنكاية به ، حتى أنه كان يحمله معه مكبلاً في غزواته ، ثم زجّه في السجن ، فظلّ في محبسه في الزهراء لأعوام إلى أن مات مسمومًا وقيلَ مخنوقًا في سجن المُطبق بالزهراء سنة 372 هـ / 983م ، وأسلم إلى أهله وهو في أقبح صورة. اندلع سخط على النظام الجديد للخلافة والوصاية ، فقامت ثورة جديدة نظمها بعض أبناء الأسرة الأموية في العاصمة سنة 368هـ / 978م ، حيث أراد المتآمرون استبدال هشام بأحد أبناء عمومته ، فشلت محاولة مرتجلة لطعن الخليفة حتى الموت ، فأدى ذلك إلى قمع وحشي للمتآمرين بإصرار من صبح والمنصور - لم يخل من التغلب على مقاومة بعض فقهاء مهمين -. ووضع هذا حدًا لمحاولات استبدال الخليفة بعضو آخر من الأسرة الأموية ، فهرب العديد من أفرادها من العاصمة ، أما من بقي فكان تحت المراقبة الدقيقة. ثم قام المنصور في العام التالي ببناء سكن جديد مُحَصن بمدينة الزهراء – وقد استمر العمل به حتى 989 ـــ ، حيث سكنت فيه القوات الموالية له وجزءٌ من إدارة الدولة ، وشكل حوله قصراً فخماً ، بالإضافة إلى ذلك ، ولتهدئة شعور العلماء بالضيق من قمع المتآمرين ضد هشام والمقربين منه (وهي مؤامرة تورط فيها البعض من العلماء) ، وأنشأ لجنة دقيقة لتطهير مكتبة الحكم ، وأحرق كتب الفلسفة في مكتبة الحكم. بعد أن استفرد بالحجابة لوحده ، قام في الصيف بتوجيه حملة جديدة ، هذه المرة في الشمال الشرقي ضد بامبلونا وبرشلونة ، واستمرت الحملة أكثر من شهرين. وقام في الخريف بغارة جديدة باتجاه ليديسما ، واستمرت أكثر من شهر بقليل. وفي مايو من العام التالي قاد حملة جديدة في هذه المنطقة ، وخلال الصيف أغار على سيبولفيدا. وفي سبتمبر 979 م أرسل من الجزيرة الخضراء مساعدة إلى سبتة التي حاصرها بلقين بن زيري والي الفاطميين على المغرب لمحاربة ولاة الأمويين في المغرب الأقصى ، والتي أضحت بعدها مركز السياسة المغربية للمنصور. كان مؤشر العهد الجديد الذي تزعمه المنصور محمد بن أبي عامر هو نزعته الفردية العنيفة ، حيث لا يتردد في استعمال مختلف الوسائل من أجل تحقيق أهدافه السياسية دون تهيب أو وجل. فبالسهولة وهدوء الأعصاب التي قضى بهما على المغيرة بن عبد الرحمن مرشح الحرس الصقلبي للخلافة ، قضى على منافسه المباشر جعفر المصحفي ليأخذ مكانه في كرسي الوزارة ، وبالطريقة نفسها سيلجأ إلى تحطيم قوة خصمه الآخر غالب الناصري بعد انتهاء التحالف المرحلي بينهما ، ولا

يتورع من الاصطدام بسيدة القصر صبح التي هي وراء نجاحه ، فلا يكون هناك قوة غير قوته ولا سلطانًا غير سلطانه. بعد سحق المعارضة داخل القصر ، سرعان ما اصطدم القائدان. فلم يرض غالب الناصري قائد الجيش العجوز من الخضوع لابن أبي عامر ، الذي كرس نفسه لتعزيز سلطته والسيطرة على الخليفة. فقد اعتقد غالب أن مناورات حليفه ، مثل بناء قصره الفخم الجديد ، وتعزيز وحداته العسكرية بالبربر ، وسيطرته المتزايدة على الخليفة بأن ذلك في النهاية سيضر بالخلافة الأموية. من جانبه اعتبر ابن أبي عامر أن استمرار مكانة والد زوجته العسكرية تضعف من قوته العسكرية ، على الرغم من حملات الانتصار المتتالية. ومن أشهر حملات المنصور على الأراضي النصرانية كانت حملته الرابعة ضد مملكة ليون في عهد الملك راميرو الثالث سنة 370 هـ / 981م حيث حاصر مدينة سمورة ، ولكنه تراجع في ذي الحجة 370 هـ / 981م ليواجه تحالف جيوش راميرو الثالث ملك ليون وغارسيا فرناندیث كونت قشتالة وسانشو الثاني ملك نافارا ، في معركة حصن روطة وهزمهم هزيمة قاسية ، أتبعها باحتلال حصن شنت منكش. وقد نتج عن تلك الهزيمة وما سبقها من هزائم متوالية أن خلع الليونيون ملكهم راميرو الثالث ، وجعلوا محله ابن عمه برمودو الثاني الذي لجأ إلى التحالف مع المنصور على أن يدفع له جزية سنوية ، ويمده المنصور بجيش يقيم في عاصمته ليون يقاتل به خصومه. كان المنصور يخشى ثورة القائد غالب الناصري عليه لأنه يعرف له مقدرته ومهارته العسكرية التي يتمتع بها لأنها تفوق مقدرته هو نفسه. فما كان للمنصور إلا أن جعل عنده نداً له ، وهذا الند كان جعفر بن علي بن حمدون الأندلسي أحد زعماء بني برزال البربرية الذي برز في الصراع بين الفاطميين والأمويين على المغرب الأقصى. فاستدعاه المنصور إلى قرطبة ، فدخلها جعفر بجيش كبير من البربر قدر عددهم بـ 600 مقاتل بعد أن استخلف أخاه يحيى على المغرب ، فأسكنه المنصور في قصر العقاب ، وأصدر له مرسوماً من الخليفة بتوليته الوزارة. وقد طلب المنصور المدد من الجنود من العدوة المغربية استعدادًا لمواجهة القائد غالب. وعندما علم القائد غالب بوصول جعفر بن حمدون مع جيشه إلى الأندلس أدرك مخطط المنصور للإطاحة به ، فأراد التخلص منه بسرعة. فدعاه وهو ذاهب في إحدى حملاته إلى قشتالة على وليمة في أنتيسة إحدى مدن الثغر الأدنى سنة 370 هـ / 981م. ولما قدم إليه المنصور ، انفرد غالب بالاجتماع معه ، وأخذ يعاتبه على سياسته في الدولة وحجر هشام في القصر. واشتد النقاش بينهما ، فما كان من غالب إلا أن أخرج سيفه وضرب المنصور فأصابه بجراح بسيطة في أصابعه وصدغه ، وكاد أن يقتله لولا أن المنصور استطاع أن يفر من أمامه فراراً ويركب فرسه هارباً من القلعة. بقي غالب في قلعة أنتيسة ، أما المنصور فقد رد بمهاجمة مدينة سالم حيث قصر القائد غالب وأسرته ، فاستولى عليها وعلى جميع ممتلكاته من الأموال ووزعها على جيشه. وقد انهت مواجهة المنصور مع غالب المحصن في أنتيسة حملته الكبيرة ضد قشتالة التي كان من المفترض أن تكون الثانية له منذ 366 هـ/ 977م. وعاد إلى قرطبة وهو ينوي التجهيز لقتال غالب ، الذي استعان بقوات راميرو غارسيز ملك بقيرة. وبعد عودة المنصور إلى قرطبة أخذ يتأهب للاستعداد لخوض حرب عنيفة ضد صهره غالب ، ولما اكتمل له ذلك سار بجيشه إلى مدينة سالم لملاقاته. وعندما اقترب منها، خرج إليه القائد غالب في جيش كبير وفيه عدد ضخم من النصارى من البشكنس بقيادة ملكهم راميرو. ونزل المنصور حصن شنت بجنت (بالإسبانية: San Vicente) بالقرب من أنتيسة في يوم الخميس 2 محرم 371هـ / 14 يوليو 981. تولى ابن أبي عامر قيادة القلب ، بينما تولى أبي يعفر بن

علي الزعبي وأخيه يحيى قيادة الميمنة التي كانت من البربر ، والميسرة بقيادة أحمد بن حزم وأبي الأحوص معن بن عبد العزيز التجيبي والحسن بن عبد الودود السلمي. وقاد غالب ذي الثمانين عامًا بنفسه الهجوم الأول على البربر في ميمنة جيش ابن أبي عامر وكسرها. ثم هاجم الميسرة وفرّقهم. ثم دعا غالب ربّه قائلاً: «اللهم إن كنت أصلح للمسلمين من ابن أبي عامر فانصرني ، وإن كان هو الأصلح لهم فانصره.» ثم هزّ فرسه وتحرك في جانب المعسكر ، ولمّا طال غيابه ، تفقّده رجاله فوجدوه مُلقىً على الأرض ولا أثر لجرح فيه. مما تسبب في اضطراب في جيشه ، وفرّ جانبٌ كبيرٌ من جُنده. حينها أوقع جند ابن أبي عامر هزيمة كبيرة بجنود حلفاء غالب النصارى. استطاع غارسيا أن يفر ، فيما وجد راميرو بين القتلى. بقي أمام ابن أبي عامر خطوة أخرى ، وهي عزل الخليفة الشرعي نفسه ، فأشاع بين الناس أن الخليفة فوّضه في إدارة البلاد لتفرغه للعبادة ، ثم أحاط قصر الخليفة بسور وخندق ، ووضع عليه الحرّاس ومنع الخليفة من الظهور. أدركت صبح التهديد المحدق بعرش ابنها ، غير أنه بعد أن تمكن محمد بن أبي عامر من كل السلطات ، لم يعد في قدرة صبح مواجهته مباشرة ، فأشاعت بين العامة أن المنصور يسجن الخليفة ويحكم رغمًا عنه ويغتصب سلطته. ثم راسلت زيري بن عطية حاكم المغرب لنصرة ولدها ، وأرسلت أموالاً إليه ليُجهز جيشه ويعبر إلى الأندلس. وعلم المنصور بذلك المخطط ، فلجأ أولاً إلى رفع يدها عن أموال خزائن قصر الخليفة التي كانت تقوم بتهريبها بواسطة فتيانها ، فأرسل ابن أبي عامر ابنه عبد الملك بقوةٍ وجمْع من العلماء والوزراء إلى قصر الخلافة بقرطبة ، وخاطب الخليفة هشام في أمر الأموال التي تهربها والدته ، وطلب أن تنقل كل الأموال من قصر الزهراء إلى قصر الزاهرة ، فلم يمتنع. وبعد أن جفت الأموال من بين يدي صبح ، يئست من قدرتها على استرجاع سلطة ابنها ، فاعتزلت الحياة السياسية حتى وفاتها حوالي عام 390 هـ. وفي عام 371 هـ ، تسمّى محمد بن أبي عامر بلقب "المنصور" ، ودُعي له على المنابر. وفي عام 379 هـ ، تعاون عبد الرحمن بن المطرف التجيبي صاحب سرقسطة مع عبد الله بن الحاجب المنصور على الانقلاب على المنصور على أن يُقسّما الملك بينهما ، فتكون الثغور لعبد الرحمن والبقية لعبد الله ، إلا أن المنصور علم بما يدبرانه ، فدبّر مَكيدة عاتية لعبد الرحمن قُتل على إثرها في 12 ربيع الأول 379 هـ ، وحبس ابنه الذي استطاع أن يفر من محبسه ، ولجأ إلى غارسيا فرناندیث كونت قشتالة ، فغزاه المنصور وطالبه بابنه فرفض غارسيا ، فهزمه واجتاح المنصور ألبة ، واستولى على وخشمة ، فاضطر غارسيا لمفاوضة المنصور وقبول شرطه بتسليم ابنه عبد الله ، ثم دسّ المنصور على ابنه لقتله وذلك 14 جمادى الآخرة 380 هـ ، ثم بعث المنصور بكل حزم برأس ابنه وكتاب الفتح إلى الخليفة ، فازدادت رهبة الناس من المنصور بقتله ابنه. وفي عام 381 هـ ، قدّم المنصور ابنه عبد الملك للولاية ، ونزل له عن لقب الحجابة ، كما استوزر ابنه عبد الرحمن. اتجه المنصور كذلك ، للاستكثار من جند البربر في جيشه ، وخاصة من زناتة الذين عبروا إلى الأندلس ، واتخذ منهم جندًا كثيفًا. في عام 375 هـ ، جهّز المنصور جيشًا كثيفًا لقتال الحسن بن كنون الذي تمرد على الأمويين في بلاد المغرب وتجمّع حوله أناس كثيرون ، فلم يجد الحسن أمامه سوى الاستسلام أمام ذلك الجيش ، فقرر قائد الجيش حمله إلى قرطبة ، إلا أن المنصور أمر بقتله وهو في الطريق ، وبإخراج الأدارسة من المغرب. ثم تمرّد بعد ذلك زيري بن عطية المغراوي على الأمويين في المغرب في عام 387 هـ ، فأرسل له المنصور جيشًا بقيادة الفتى واضح العامري ، فقامت بينهما معارك كبيرة ، انهزم فيها الجيش الأندلسي ، فأرسل المنصور

ابنه عبد الملك بجيش آخر ، وانتقل المنصور بنفسه إلى الجزيرة الخضراء لإدارة الحرب وإمداد قادته في المغرب بالقوات ، وقد استطاع جيش عبد الملك أن ينتصر على جيش زيري رغم أن الأخير كان قد اقترب من النصر لولا خيانة تعرض لها زيري بتدبير من المنصور ، حيث طعنه ابن عمه الخير بن مقاتل برمح في ظهره أثناء المعركة ، فتسببت إصابة زيري في إرباك جيشه وهزيمته وفراره في بعض جنده. وبعد أن شفي من جراحه ، أظهر زيري الندم ، وتوسّع شرقًا في أراضي قبائل صنهاجة الموالية للفاطميين باسم الخليفة هشام المؤيد بالله ، وهو ما قبله منه المنصور ، فعفا عنه وأقره على ما بيده حتى توفي زيري ، فأبقى المنصور ما له لولده المعز بن زيري. تعدّدت حملات محمد بن أبي عامر ، فلم يكتف كسابقيه بالحملات الصيفية فقط ، بل وكانت له حملاته الشتوية ، التي من خلالها استعاد مدن لُكّ وشلمنقة وشقوبية وآبلة وسمورة التي فقدها المسلمون في بداية عهد الدولة الأموية في الأندلس عندما استغل فرويلا الأول ملك أستورياس انشغال عبد الرحمن الداخل بإخضاع الثورات الداخلية في الأندلس في عهده ، وضمّ فرويلا تلك المدن. تعدّدت وجهات تلك الحملات ، وقد ذكر لنا المؤرخون منها غزواته على حصن الحامة في رجب 366 هـ ، وحصن مولة في شوال 366 هـ ، وشلمنقة في صفر 367 هـ وفي ربيع الأول على الراجح سنة 373 هـ ، وريف مملكة نافارا وكونتية برشلونة في شوال 367 هـ ، والمُنية في ربيع الآخر 370 هـ ، وقلعة أيوب وأنتيسة في ذي القعدة 370 هـ ، وسمورة في رمضان 373 هـ ، وطرنكوشة في ربيع الآخر 371 هـ. ثم كانت للمنصور حملات أخرى على شنت منكش في محرم 373 هـ ، وشقرمنية في جمادى الأولى 373 هـ. في شهر ذي الحجة 374 هـ ، غزا المنصور برشلونة وهزم بورل الثاني كونت برشلونة ، ودخل المدينة عنوة في 15 صفر 375 هـ ، بعد أن حاصر المدينة بجيش عظيم من البر وبأسطوله من البحر لم يستطع بورل الثاني مقاومته ، فاضطر إلى الهرب وترك المدينة لقدرها ، ولم تمض أيام حتى سقطت المدينة فدمّرها المنصور وقتل عددًا كبيرًا من الناس. وفي صفر 376 هـ ، غزا ألبة وليون وشلمنقة وحاصر سمورة ثم صالحهم ، ثم غزا قندبخشة في جمادى الآخرة 376 هـ ، وقلمرية في 378 هـ وبنبلونة عام 379 هـ. وعقابًا لغارسيا فرناندیث كونت قشتالة على مساعدته لولده عبد الله بن المنصور في تمرده على أبيه ، حرّض المنصور سانشو بن غارسيا على التمرد على أبيه بمساعدة بعض نبلاء قشتالة. دارت بين سانشو وأبيه عدة معارك سانده فيها المنصور ، انتهت تلك المعارك بمقتل غارسيا عام 385 هـ ، وخضوع سانشو للمنصور وأدائه الجزية للمسلمين. وقد استغل المنصور تلك الحرب الأهلية بين غارسيا وولده ، وضم شنت إشتيبن وقلونية. إلا أن أكبر غزواته كانت تلك التي بدأها في 24 جمادى الآخرة 387 هـ بغزو جليقية ، حيث بدأ بغزو قورية ثم بازو وقلمرية ، وفي الطريق انضمت إليه إليها قوات مناطق الثغور والكونتات المحليين بقواتهم الذين آثروا تجنب مواجهة جيشه ، كما صاحبه أسطول بحري كان المنصور قد أمر ببنائه في قصر أبي دانس. فاجتاح المنصور بجيشه جليقية ، حتى بلغ مدينة شنت ياقب التي بها ضريح القديس يعقوب بن زبدي وهي من الأماكن المقدسة عند نصارى الغرب ، فبلغها في 2 شعبان وقد وجد أهلها قد غادروها ، فأمر بهدم المدينة ما عدا الضريح ، واستولى على كنوزها ، ثم بعث السرايا للمناطق المجاورة والتي تابعت مسيرها حتى وصلت إلى شاطيء المحيط الأطلسي عند مدينة قرجيطة ، ثم توجّه جنوبًا لغزو أراضي برمودو الثاني ملك ليون ، وعند لميقة سمح لحلفائه من الكونتات النصارى بالعودة إلى بلادهم بعد أن أغدق عليهم عطاياه ، وعاد هو إلى

قرطبة ومعه آلاف الأسرى والغنائم. وفي عام 390 هـ ، تحالف أمراء من البشكنس وقشتالة وليون بقيادة سانشو غارسيا كونت قشتالة على قتال المنصور والتفاني في ذلك ، فسار المنصور عبر أراضي قشتالة لقتالهم ، فعسكر التحالف في صخرة جربيرة وهي موقع وعر وحصين ، فوافاهم المنصور إلى تلك المنطقة ، والتقى الجيشان في 24 شعبان 390 هـ ، وبادر سانشو بالهجوم على ميمنة وميسرة جيش المنصور اللتان أصابهما الخلل ولولا ثبات القلب بقيادة ولدي المنصور عبد الملك وعبد الرحمن وجنودهما من البربر لانهزم المسلمون ، الذين استطاعوا استيعاب الهجوم وردوه بهجوم عكسي تحقق به النصر للمسلمين ، وقد خسر المسلمون في معركة صخرة جربيرة 700 قتيل. لم يكتف المنصور بذلك ، فواصل هجومه حتى اقتحم برغش عاصمة قشتالة ، ثم هاجم أراضي نافارا حتى أشرف على عاصمتهم بنبلونة ، ثم رجع إلى قرطبة بعد أن أمضى 109 يوم في تلك الحملة العسكرية. توفي الحاجب المنصور في 27 رمضان 392 هـ في مدينة سالم وهو عائد من إحدى غزواته على برغش ، التي أصيب فيها بجروح ، وكان قد أوصى بأن يدفن حيث مات ، ومازال ضريحه موجوداً ويعرف بضريح الحاجب المنصور ، كان يشتكي عِلة النقرس. وقد ترك المنصور من الولد اثنين عبد الملك وعبد الرحمن ، غير ابنه عبد الله الذي قتله سنة 380 هـ. وقد ذكر لنا المؤرخون أربعاً من زوجاته على الأقل ، وهن أسماء بنت غالب الناصري ، والذلفاء أم ولده عبد الملك وتريسا بنت برمودو الثاني ملك ليون ، وأوراكا ابنة سانشو الثاني ملك نافارا التي تزوجها عام 371 هـ ، وأسلمت وسمّاها المنصور: "عبدة" وهي أم ولده عبد الرحمن. وقد ترك المنصور من المال 54 بيتًا في مدينته الزاهرة ، وقد بلغت غزواته التي غزاها بنفسه 57 غزوة ، لم يهزم في أحدها قط. وقد وضعت على قبره رخامة نُقِش عليها الأبيات التالية:

آثـــاره تُنبيـــك عـــن أخبـــاره   حتـــى كأنـــك ـ بالعيـــان ـ تـــراهُ

تـــالله لا يـــأتي الزمـــانُ بمثلـــه   أبـــدًا ، ولا يحمـــي الثغـــور ســـواه

وقد خلفه في مناصبه ولده عبد الملك الذي سار على نهج أبيه إلى أن توفي عام 399 هـ ، فخلفه أخوه عبد الرحمن الذي لم تدم فترته طويلاً حيث دخلت الأندلس في عهده في فترة من الاضطرابات بدأت بمقتله ، واستمرت لأعوام وانتهت بسقوط الدولة الأموية في الأندلس وقيام ممالك الطوائف. هذا ولقد أضاف المنصور لجامع قرطبة عام 377 هـ جناحًا كبيرًا بعد أن زاد عدد سكان قرطبة بصورة كبيرة في عهده خاصة من البربر الذين دخلوا الأندلس قادمين من المغرب. كما أنه بنى على نهر شنيل قنطرة عند إستجة ، إلا أنه لم يعد لها وجود الآن. وفي عام 368 هـ ، وفي إطار سعيه في استكمال استقلاليته في حكم الأندلس ، بدأ الحاجب المنصور في بناء مدينته الزاهرة والتي نقل إليها دواوين الحكم وبنى فيها قصرًا لإقامته ، بالغ في فخمته حتى كان استهلاك قصره يوميًا 12,000 رطل من اللحم غير الطيور والأسماك ، وقد استغرق بناء المدينة نحو عامين. وفي عام 370 هـ، انتقل إليها المنصور هو وخاصته ومن ثمّ العامة ، وشحنها بالأسلحة ، وأقطع ما حولها للوزراء والقادة وكبار رجال الدولة حتى اتصل عمرانها بأرباض قرطبة ، وعمّتها الحركة وانتشرت بها الأسواق. كما أرسل إلى العمال في الأندلس والمغرب بحمل أموال الجباية إليها. وفي عام 377 هـ، أضاف الحاجب المنصور توسعة جديدة

في شرقي المسجد الجامع بقرطبة ، حتى بلغت أعمدة المسجد 1417 سارية ، كما زاد من إنارته بإضافة الإنارة بالشمع مع ما كان عليه من الإنارة بالزيت ، وقد حرص على أن يعوّض من تُؤخذ داره لتوسعة المسجد بأضعاف ما يطلب من المال ، وإن بالغ في ذلك. فيُروى أن امرأة كانت تسكن في بيت فيه نخلة بجوار المسجد دخل في نطاق التوسعة الجديدة ، قد أبت صاحبته أن تبيعه إلاَّ إذا جُعل لها منزل آخر فيه نخلة كالذي تملكه ، فأمر المنصور بشراء بيت لها فيه نخلة كما أرادت ، حتى ولو أتى ذلك على بيت المال ، ثم أضاف بيتها إلى حدود المسجد. وبدأ في سنة 387 هـ بتجديد قنطرة قرطبة ، وانتهى منها في 389 هـ ، وأنفق عليها 140,000 دينار ، كما أضاف قنطرة أخرى على نهر شنيل. كما اتسعت قرطبة في عهده حيث قدّر إحصاء دواوين دولته عدد دور قرطبة وأرباضها في عهده 213,077 دار للعامة ، و60,300 دار للأكابر والوزراء والكتّاب والقادة والحاشية ، إضافة إلى 80,455 حانوت. ولقد اهتم المنصور بالجيش ، وبالغ في الاعتماد على البربر ومرتزقة الإسبان النصارى فيه ، حتى بلغ عدد الفرسان البربر القادمين من المغرب في حرس الديوان 3,000 فارس إضافة إلى 2,000 من العبيد السود. كما وصل جملة الفرسان المرتزقة وقت السلم 12,100 فارس ، إضافة إلى حرسه الخاص الذين بلغوا 600 رجل ، وجنده المشاة الذين كانوا ينتظمون في حملاته والذين بلغ عددهم 26,000 جندي ، وفي وقت الحملات العسكرية ، يزيد الفرسان حتى بلغوا أحيانًا 46,000 فارس والمشاة إلى 100,000 رجل. مما دعاه في آخر عهده للاستغناء عن التجنيد الإجباري في حملاته ، والاكتفاء على الجنود النظاميين. هذا غير 4,000 جمل يستخدمها الجيش في حمل العتاد والمؤن في الحملات العسكرية ، كما اهتم بالأسطول فأمر بإنشاء دار جديدة لصناعة السفن في قصر أبي دانس. كما اهتم المنصور أيضًا بتوفير مستلزمات جيشه ، فأنشأ دور للصناعات الحربية التي تُمدّ جيشه بالسلاح والتي تعمل على مدار العام ، فكانت دار الترّاسين تنتج 13,000 ترس و12,000 قوس و20,000 من النبل ، و3,000 خباء كل عام. كما بلغ استهلاك خيله نحو ألف مُدّ من الشعير كل عام ، ولقد نجح المنصور في إدارة شؤون البلاد الاقتصادية ، وشهدت البلاد في عهده رواجًا اقتصاديًا وزاد دخل الدولة حتى بلغت الضرائب العادية في أواخر عصره 4,000,000 دينار ، بل وبلغت جباية قرطبة في عهده 3,000,000 دينار. إضافة إلى رسوم المواريث وأموال السبي والغنائم. وقد أدت حالة الرواج الاقتصادي تلك ، التي نتجت عن الغنائم والسبي إلى عزوف شباب الأندلس عن الزواج من الأندلسيات ، لرخص ثمن الأسيرات من بنات الإفرنج. كما بلغ إجمالي الإنفاق العام للدولة نحو 3,500,000 دينار. وبلغ إنفاق المنصور الشهري وحده على قصوره وقصور الخلافة 200,000 دينار ، تزداد في وقت الحملات إلى 500,000 دينار في الشهر. أما عن الحالة الأمنية ، فقد استطاع المنصور أن يضبط أحوال البلاد الأمنية منذ بداية عهده بعدما ولاّه الخليفة على حاكمية قرطبة بعد عزل محمد بن الحاجب المصحفي ، فأوكلها ابن أبي عامر إلى ابن عمه عمرو بن عبد الله بن أبي عامر الشهير بعسكلاجة ، الذي أنهى حالة الانفلات الأمني التي سادت بداية خلافة الخليفة هشام المؤيد بالله ، كما كان لميكافيليته من استخدام كل الوسائل المتاحة لكي يتمكن من السيطرة على السلطة ، بما في ذلك سلاح الاغتيال وإزهاق الأرواح دون تردد أثره في اختفاء التمردات الداخلية في الأندلس طوال عهده تقريبًا. ولم يشهد عهد الحاجب المنصور نفس الزخم الذي ساد الحياة الدبلوماسية في عهد الخليفتين عبد الرحمن الناصر لدين الله والحكم المستنصر بالله ، فلم تزد الزيارات الدبلوماسية إلى بلاطه عن

زيارة من قبل برمودو الثاني ملك ليون عام 375 هـ ، طلبًا لمعاونة المنصور لبرمودو في مقاومته لتمردات نبلاء مملكته الخارجين عليه ، وقد أجابه المنصور لذلك. ونتج عن تلك الزيارة مصاهرة بزواج المنصور من تريسا ابنة برمودو لتوثيق أصر الصداقة بين الرجلين. وبعد هزائمه المتوالية أمام المنصور ، اضطر سانشو الثاني ملك نافارا لطلب الصلح وزار بنفسه قرطبة في عدد من كبار رجال دولته في 3 رجب عام 382 هـ. وصفه ابن الأثير قائلاً: «وكان شجاعًا ، قوي النفس ، حسن التدبير ، وكان محبًا للعلماء ، يُكثر مجالستهم ويناظرهم ، وقد أكثر العلماء ذكر مناقبه ، وصنّفوا لها تصانيف كثيرة.» وقال عنه ابن خلدون: «وكان ذا عقل ورأي وشجاعة ، وبصر بالحروب ، ودين متين» وقال عنه ابن الخطيب: «وكان مهيبًا وقورًا ، فإذا خلا كان أحسن الناس مجلسًا ، وأبرّهم بمن يحضر منادمًا ومؤانسًا. وكان شديد القلق من التبسط عليه ، والدالة والامتنان، لا يغفرها زلة ، ولا يحلم عنها جريرة ، ولم يكن يسامح في نقصان الهيبة ، وحفظ الطاعة أحدًا من ولدٍ ولا ذي خاصة ، دعاه ذلك إلى قتل ولده عبد الله بالسيف صبرًا بما هو معروف.» كما نقل محمد عبد الله عنان في كتابه "دولة الإسلام في الأندلس" عن المؤرخ الإسباني مننديث بيدال تعليقه على عصر المنصور قائلاً: «عاش الإسلام في إسبانيا أروع أيامه وأسطعها ، وانتهى نصارى الشمال إلى حالة دفاع كانت دائمًا مقرونة بالمحن ، ولاح كأنهم لم يعيشوا إلا لتأدية الجزية والسلاح والأسرى والمجد للخلافة الأموية.» كذلك عُرف عنه كرمه وكثرة إنفاقه ، فكانت مائدته منصوبة دومًا لمن يزور داره. ومع ما كان عليه من الهيبة والرهبة ، فقد كان له حلم واحتمال. ويروى أنه خطّ بيده مصحفًا كان يحمله معه في أسفاره ويتبرك به ، كما كان يجمع ما علق بوجهه من غبار معاركه حتى تجمّعت له صُرة كبيرة أوصى أن تُدفن معه عند موته. اتصف المنصور أيضًا بالعدل حتى على أقرب الناس إليه. وكان يُكنّ حبًا واحترامًا للعلماء والأدباء ، فكان مجلسه دائمًا بأهل العلم والأدب والشعر، كما كانت له هباته للأدباء والشعراء على ما يبدعونه ، ولعل أشهرها إجازته لصاعد البغدادي بخمسة آلاف دينار عن كتابه "الفصوص في الآداب والأشعار والأخبار" ، وأمره له بأن يقرأه على الناس في مسجد الزاهرة. إلا أنه كان شديدًا على من يشتغل بالفلسفة أو الجدال أو التكلم في النجوم أو الاستخفاف بشيء من أمور الشريعة ، بل وحرق ما كان في مكتبة الحكم من كتب الدهرية والفلاسفة. وقد روى ابن عذاري عن نجدته للمسلمين أنه بلغه وجود أسيرات مسلمات لدى غارسيا سانشيز الثاني ملك نافارا رغم أنه كانت بينهما معاهدة تنص على ألا يستبقي غارسيا لديه أسرى من المسلمين ، فأقسم بالله تعالى أن يجتاح أرضه لنكثه بالعهد ، ولما خرج المنصور بجيشه ، وبلغ غارسيا خروجه. أسرعت رسل غارسيا تستفسر عن سبب الغزو ، فأعلموهم بخبر الأسيرات المسلمات ، فردّهن غارسيا معتذرًا بعدم علمه بهن ، وبأنه هدم الكنيسة التي كانت تحتجزهن كاعتذار منه على ذلك ، فقبل منه المنصور ذلك وعاد بالأسيرات. ومع ما كان فيه من الخلال ، إلا أنه معاقرٌ للخمر غير أنه أقلع عنها قبل وفاته بسنتين. وللمنصور شعرٌ جيدٌ ، منه ما قاله مُفاخرًا:

رميـــت بنفســـي هـــول كـــل عظيمـــة   وخـــاطرت والحـــر الكـــريم يُخـــاطر

ومـــا صـــاحبي إلا جنـــان مشـــيع   وأســـمر خطّـــيّ وأبـــيض بـــاتر

وإنـــي لزجّـــاء الجيـــوش إلـــى الـــوغى أســـودٌ تلاقيهـــا أســـود خـــوادر

فسُـــدت بنفســـي أهـــل كـــل ســـيادة وفـــاخرت حتـــى لـــم أجـــد مـــن أفـــاخر

ومـــا شـــدت بنيانًـــا ولكـــن زيـــادة علـــى مـــا بنـــى عبـــد المليـــك وعـــامر

رفعنـــا العـــوالي بـــالعوالي مثلهـــا وأورثناهـــا فـــي القـــديم معـــافر

وإذن فكان الحاجب المنصور بطلاً في السلم والحرب! كان يُدرك جيداً ما للسلم من شرط وما للحرب من شرط! فلم يخلط بين الشرطين! مما حدا بأعدائه قبل أحبابه أن يعجبوا بشخصيته! وفي كتاب: (الأوابد) وصف مؤلفه المنصور بن أبي عامر بأنه مفخرة من مفاخر التاريخ العربي والإسلامي ، ومثل من الهمة الطامحة ، والنفس الهمامة ، والعزم الذي لا يفل. ينتسب إلى قبيلة مَعافر إحدى قبائل اليمن. دخل جده عبد الملك بن عامر الأندلس في جند طارق بن زياد ، وأقام بعد الفتح في الجزيرة الخضراء ، فكان له ولبنيه شأن. واتصل أبو عامر جد المنصور بالخلفاء في قرطبة ، وعُدَّت أسرة أبي عامر في أسر الوزراء. وكان أبو حفص والد المنصور متألهًا زاهدًا ، شُغل بالحديث عن خدمة الخلفاء ، ومات قافلًا من الحج ، فدُفن بمدينة طرابلس. وأم المنصور من أسرة تميمية ؛ أسرة بني برطال. ونشأ محمد «المنصور» نجيبًا ، طماحًا ، عظيم الهمة ، كبير القلب ، أُثر عنه أيام طلبه العلم والأدب بقرطبة نوادر تنبئ باعتداده بنفسه ، واستشرافه للمعالي ، يقول محمد بن إسحاق التميمي: كان محمد بن أبي عامر نازلًا عندي في حجرة فوق بيتي ، فدخلت عليه في بعض الليالي في آخر الليل ، فوجدته قاعدًا على الحال التي تركته عليها أول الليل حين فصلت عنه ، فقلت له: ما أراك نمت الليلة! قال: لا ، فقلت: ما أسهرك؟ قال: فكرة عجيبة ، قلت: فبماذا كنت تفكر؟ قال: فكرت إذا أفضي إلي الأمر ومات محمد بن بشير القاضي ، بمن أستبدله ، ومن الذي يقوم مقامه؟ فجلت الأندلس كلها بخاطري فلم أجد إلا رجلًا واحدًا ، فقلت: لعله محمد بن السليم ، قال: هو والله ، لشدَّ ما اتفق خاطري وخاطرك. وكذلك رشحَته للمعالي نفسه العظيمة ، وآماله الكبيرة. والمرء حيث يضع نفسه. صار محمد من أعوان قاضي قرطبة محمد بن السليم ، ثم تقلب في القضاء ، وجُعل وكيلًا لعبد الرحمن بن الخليفة المستنصر وأمه ، ولما مات عبد الرحمن جُعل وكيلًا مخلصاً لأخيه هشام ، ورُتب له خمسة عشر دينارًا كل شهر. وعرف الخليفة قدر الرجل ، فكان يندبه فيما يعضل من الأمور ، ثم ولاه الشرطة الوسطى ، ولم يألُ ابن أبي عامر جهدًا في التقرب من هشام وأمه صبح ، وكانت ذات مكانة عند الخليفة. وعهد الخليفة إلى ابنه هشام ، فحرص ابن أبي عامر على أن يحتفظ لهشام بولاية العهد ، ثم الخلافة بعد أبيه ، على كثرة ما اجتهد الصقالبة في تولية المغيرة بن عبد الرحمن الناصر عم هشام. وتولى قيادة الجيش إلى غزوة نكص عنها كبراء الدولة ، ورجع منها مظفرًا ، فزاد هيبة ومكانة ، ثم ولي شرطة قرطبة ، فسيطرت على المدينة هيبته وعدله ، فأمن الأخيار ، وسكن الأشرار. يقول صاحب البيان المغرب: فضبط محمد المدينة ضبطًا أنسى أهل الحضرة من سلف من أفراد الكفاة وأولي

السياسة ، وقد كانوا قبله في بلاء عظيم ، يتحارسون الليل كله ، ويكابدون من روعات طراقه ما لا يكابد أهل الثغور من العدو ، فكشف الله عنهم بمحمد بن أبي عامر وكفايته وتنزهه ، فستر باب الشفاعات ، وقمع أهل الفسق والدعارات ، حتى ارتفع البأس ، وأمن الناس ، وأمنت عادية المتجرمين من رجال السلطان ، حتى لقد عثر على ابن له ، فاستحضره في مجلس الشرطة وجلده جلدًا مبرحًا كان فيه حمامه ، فانقطع الشر جملة. ولما رجع من غزاته الثالثة ظافرًا ، رفعه الخليفة إلى الوزارة ، وجعل راتبه ثمانين دينارًا ، وهو راتب الحجابة ، ثم شارك أبا جعفر الحاجب ، ثم استبد بالحجابة عام سبعة وستين وثلاثمائة ، فقد بلغ أرفع مناصب الدولة. سيطر ابن أبي عامر سبعة وعشرين عامًا على الأندلس كلها ، فصرَّف أمورها في الحرب والسلم كما يشاء ، ولم تجتمع أمور الأندلس في يد واحدة قادرة إلا في يد عبد الرحمن الناصر ، ويد المنصور بن أبي عامر ، فأما الناصر فقد ورث ملكًا ثبته رأيه وعزمه ، ومضاؤه وإقدامه ، وأما ابن أبي عامر فقد رفعه إلى السلطان نفسٌ طماحة ، وعزيمة ماضية ، وخلق مرير ، ولم تكن هيبته في نفس أعداء الأندلس دون هيبته في الأندلس ، فقد أولع بالغزو ، وانتدب للجهاد ، فغزا خمسين غزوة صارمة في شمال الأندلس لم تنكس له راية ، ولا بَعُدت عليه غاية ، حتى بلغ شنت ياقوب في أقصى الجزيرة إلى الشمال والغرب ، وما طمع أحد من المسلمين قبله أن تنال همته هذا المكان القصي. ولقد صدق صاحب البيان حين قال: ثم انفرد بنفسه ، وصار ينادي صروف الدهر: هل من مبارز؟ فلما لم يجده حمل الدهر على حكمه ، فانقاد له وساعَده ، فاستقام أمره منفردًا بمملكة لا سلف له فيها. ومن أوضح الدلائل على سعده أنه لم ينكب قط في حرب شهدها ، وما توجهت قط عليه هزيمة ، وما انصرف عن موطن إلا قاهرًا غالبًا ، على كثرة ما زاول من الحروب ، ومارس من الأعداء ، وواجه من الأمم. وإنها لخاصة ما أحسبُه يشركه فيها أحد من الملوك الإسلامية. ومن أعظم ما أعين به مع قوة سعده ، وتمكن جنوده: سعة جوده ، وكثرة بذله ؛ فقد كان في ذلك أعجوبة الزمان. وكان المنصور عادلًا شديدًا في الحق ، لا تأخذه فيه محاباة ولا شفقة ، ولا يعرف في إنفاذ الحق هوادة. جاء إلى مجلسه رجل فناداه: يا ناصر الحق ، لي مظلمة عند هذا الفتى. وأشار إلى أحد فتيانه ، وقد دعوته إلى الحاكم فلم يأتِ ، قال المنصور: اذكر مظلمتك ، ما أعظم بليتنا بهذه الحاشية! وقال للفتى: انزل صاغرًا ، وساوِ خصمك في مقامه حتى يرفعك الحق أو يضعك ، وقال لصاحب الشرطة: خذ بيد هذا الظالم الفاسق ، وقدمه مع خصمه إلى صاحب المظالم ينفذ فيه حكمه بأغلظ ما يوجبه الحق. ولما عاد الرجل المتظلم إلى المنصور يشكره ، قال له: قد انتصفت أنت ، فاذهب لسبيلك ، وبقي انتصافي أنا ممن تهاون بمنزلتي. وعاقب الفتى وعزله. ما ثبت سلطان هذا الرجل الطماح المتسلط المقدام إلا بهذا العماد من العدل والإنصاف ، وإيثار الحق على نفسه وخاصته. وكان له فصاد ، فاحتاج له يومًا ، فقيل له: إنه في حبس القاضي ؛ لحيف كان منه على امرأته. فأمر المنصور بإخراجه مع رقيب من رقباء السجن ليفصده ثم يعود إلى محبسه. وشكا الرجل إلى المنصور ما ناله من ظلم القاضي ، فقال: يا محمد ، إنه القاضي ، وهو في عدله ، ولو أخذني الحق ما أطقت الامتناع عنه ، عُدْ إلى محبسك أو اعترف بالحق ؛ فإنه هو الذي يُطلقك. فمن يسأل عن ملك العرب والمسلمين كيف ثبت هذه الحقب الطويلة على أعاصير الخطوب؟ ففي هذا وأمثاله جواب! وكان على كثرة مشاغله ذا عناية بالأدب والعلم ، يجتمع العلماء والأدباء كل أسبوع ويتناظرون في حضرته ، ويمدحه الشعراء. وكان — رحمه الله — ديِّنًا متألهًا ورعًا ، كتب بيده مصحفًا كان يحمله في أسفاره ، وجمع ما

علق بثيابه من غبار الحرب وأوصى أن يجعل في حنوطه إذا مات ، كما فعل أمير العرب ابن حمدان من قبله: صنع من غبار الوقائع لبنة لتوضع في قبره تحت رأسه ، واتخذ المنصور كفنه من مال موروث من أبيه ، ومن غزل بناته اتقاءً للشبهة ، وتورعًا أن يكون في أكفانه مال يرتاب فيه! توفي المنصور سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة غازيًا بمدينة سالم ، في أقصى الثغور الأندلسية ، ففرح أعداؤه بموته ، وصوروا جنازته ، ولا تزال صور الجنازة في متاحف أوروبا. رحم الله المنصور بن أبي عامر ؛ إن في سيرته لقدوة حسنة لكل طامح يسمو إلى الدرجات العلى في المنصب والدين والخلق. رحم الله المنصور ؛ إن في سيرته لحُجّة يوم نفاخر بتاريخ العرب والإسلام).هـ. نعم حُق لنا أن نفاخر بالحاجب المنصور وبأمثاله من الأبطال المغاوير! ويكون لنا الفخر عندما نذكر مناقب هؤلاء الأشاوس العظماء! وهذا هو البروفيسور فيليب سيناك أستاذ تاريخ القرون الوسطى في جامعة تولوز بجنوب فرنسا. وهو مختصٌ أساساً بمنطقة المغرب الإسلامي وعلم الآثار العربية. وكان قد نشر مقالات أكاديمية عديدة عن العلاقات بين الغرب النصراني والإسلام قبل القرون الوسطى. كما نشر عِدة كتب مُهمة نذكرُ من بينها: تاريخ الغرب النصراني في مواجهة الإسلام. صورة الآخر. ثم الحدود والبشر بين القرنين الثامن والثاني عشر... الخ. فقد كتب كتاباً عن الأندلس! وكان قد قدم في هذا الكتاب الجديد قصة حياة إحدى أهم الشخصيات العربية في الأندلس: إنه محمد بن أبي عامر المُلقب بالمنصور ومعلوم أنه شغل البشرية الإسلامية والنصرانية على مُفترق الألفية الأولى يقول المؤلف منذ البداية ما معناه: ليس من السهل أن نكتب قصة حياة شخص عاش ومات قبل ألف سنة من وقتنا هذا ، فالمعلومات الموثوقة عنه قليلة عموماً ، وأفضلُ مَصدر يمكن أن نعتمد عليه هو من دون شك كتاب المؤرخ الأندلسي ابن حيان الذي مات عام 1076 م أي بعد ثلاثة أرباع القرن من موت المنصور. ولكن بما أن والد ابن حيان كان وزيرا لديه فإنه يقدم لنا معلومات ثمينة عنه من المعلوم أن المنصور كان قد اشتهر بجهاده وغزواته لأوروبا النصرانية ، وقد أرعبهم جميعاً بسبب قوة جيشه وجُرأته على الاقتحام وشجاعته في ساح الوغى ، وكان القائد العربي الوحيد الذي استطاع أن يصل إلى برشلونة فاتحاً. وبعدئذ أصبحت جميع المناطق النصرانية شمال أسبانيا تخشاه وتشعر بالرعب عندما يذكر اسمه ، وبالإضافة إلى ذلك فقد أسس نظاما صارما في الداخل وفرض هيبته المرعبة على الجميع. نعم لقد قدم لنا المؤرخ ابن حيان معلومات كثيرة عن هذا الرجل الذي ملأ اسمه الدنيا وشغل الناس ، وكان ذلك في كتاب شهير بعنوان: أخبار الدولة العامرية المنسوخة بالفتنة البربرية. والمقصود بذلك أن البربر هم الذين قضوا على سلالته بعد أن سيطروا على قرطبة حوالي عام 1009 م وبالتالي فكلمة منسوخة تعني هنا ملغاة. لكن من هو محمد بن أبي عامر؟ على هذا السؤال يجيب المؤلف قائلاً: يقول لنا الفيلسوف الأندلسي الشهير ابن حزم بأنه ولد عام 938 م في عائلة يمنية معروفة ، وكان أحد أجداده قد ساهم في فتح الأندلس مع طارق بن زياد 711 م. وقد عاش في فترة ازدهار الخلافة الأموية بالأندلس ، ففي نهايات القرن العاشر الميلادي كانت قرطبة قد أصبحت أكبر عاصمة في أوروبا في عهد الخليفة الأموي الكبير عبد الرحمن الثالث الملقب بالناصر ، ولكن بعد موت هذا الخليفة الكبير ثم الحكم الثاني الذي خلفه لم يعد هناك أحد لكي يخلفهما فعلاً ، فالوريث أي هشام الثاني كان صغيراً في السن ، وقد استغل المنصور هذه الفرصة السانحة وقفز على سدة السلطة. والواقع أنه كان يتميز بعدة صفات أساسية أتاحت له قيادة البلاد وزعامتها طيلة ربع قرن على الأقل ، فقد كان ضليعاً في العلوم الدينية والفقهية ،

ومُحنكاً في الشؤون الدنيوية والسياسية ، وعلى الرغم من قوته وجبروته إلا أنه لم يقتل الخليفة الشرعي ولم يحل محله وإنما شكل سلطة موازية له ، وهكذا ظلت الخلافة للأمويين وإن بشكل رسمي أو شكلي فقط ، وأصبحت السلطة الفعلية في يد وزيرهم ، المنصور. وقد حصل شيءٌ مُشابهٌ لذلك في بغداد عندما استولى البويهيون على السلطة الفعلية وتركوا المناصب الشكلية والتشريفية للخليفة العباسي الذي لم يعد له من السلطة إلا الاسم. لكي يشرح المؤلف كيفية صعود محمد بن أبي عامر إلى سدة السلطة وما حصل في عهده من أحداث جسام فإنه يقسم كتابه إلى تسعة فصول مع مقدمة وخاتمة. الفصل الأول يتحدث عن بدايات محمد بن أبي عامر ، أي عن ولادته ، وطفولته ، وتعليمه ، وارتقائه في سلم الوظائف حتى وصل إلى مرتبة الحاجب: أي الوزير بحسب لغة ذلك الزمان. كما ويتحدث المؤلف في الفصل الأول عن إرسال الخليفة الأموي له إلى المغرب الأقصى من أجل الدعاية له في صفوف القبائل البربرية وتجنيد المجاهدين هناك ، وقد نجح في مُهمته المغربية أفضل نجاح على ما يبدو. ولذلك فإن مرتبته في سلم الحكم ارتفعت بعد عودته إلى قرطبة: عاصمة الأندلس الزاهرة. وأما الفصل الثاني من الكتاب فمكرس لدراسة كيفية وصوله إلى السلطة. والواقع أن العملية لم تكن سهلة ولا ميسورة ، فقد اضطر الرجل إلى تصفية منافسيه وخصومه الواحد بعد الآخر ، ويؤخذ عليه هنا أنه كان قاسيا لا يرحم ، فلم يتردد عن قتل الوزير السابق لكي يحل محله ، نقول ذلك على الرغم من أفضال هذا الوزير السابق عليه ومساعدته له في البداية عندما لم يكن شيئاً يذكر. وبالتالي فقد انطبقتْ عليه تلك المقولة الشهيرة: اتق شر من أحسنت إليه. ثم يتحدث المؤلف في الفصل الثالث من الكتاب عن كيفية بنائه للمدينة الزاهرة في ضواحي قرطبة لكي تكون مقر حكمه وبداية عهد سلالته. كما يذكر لنا أسماء الأدباء والشعراء الأندلسيين الذين تحلقوا حوله لكي يمدحوه ويمجدوا فتوحاته ويحظوا بأعطياته. ومن بين هؤلاء المادحين والمقرظين نذكر: أبو عمر يوسف ابن هارون القرطبي ، وابن شهيد ، وأبو الفرج ، وابن دراج القسطلي ، الخ. ولكن يؤخذ عليه اضطهاده للفلاسفة والمفكرين الأحرار في قرطبة ، فقد سجن بعضهم ، وقتل البعض الآخر ، ولم يكن متسامحاً مع من يهجونه أو ينقلب عليه وإنما كان عذابه وخيماً. ولكن أليست هذه هي حالة معظم السلاطين والحكام في القرون الوسطى؟ وهل ينبغي أن يدهشنا ذلك؟ وأما الفصل الرابع من الكتاب فمكرس لدراسة النظام الدكتاتوري الذي فرضه المنصور على الأندلس ، هذا في حين أن الفصل الخامس يتحدث عن علاقته بالمغرب. وفي الفصل السادس يتحدث المؤلف عن الجهاد العامري ، أي عن الغزوات والفتوحات التي قام بها محمد بن أبي عامر والتي دفعت إلى خلع لقب المنصور عليه ، فلم يهزم في أي معركة ضد النصارى. أما الفصل السابع من الكتاب فمكرس لدراسة أفول هذه السلالة الحاكمة التي شكلها: أي السلالة العامرية. فالواقع أنها لم تعش إلا بضع سنوات بعد موته ، وهذا شيء مدهش لأن الشخصيات الكبرى تؤسس عادة سلالات ضخمة تظل بعدها لفترة طويلة ، ولكن يبدو أن أولاده الذين ورثوه على الحكم لم يكونوا عباقرة مثله فأفلتت الأمور من أيديهم وانهارت سلطتهم وسلالتهم بسرعة. أما الفصل الثامن من الكتاب فمكرس لدراسة الصورة التي شكلها عنه المؤرخون الأسبان قديماً وحديثاً. وهي صورة سلبية بالطبع لأنه فتح بلادهم ودمر قلاعهم وهيمن على أمرائهم. ولذلك لقبوه بالطاغون. وهذا أكبر دليل على مدى الخطورة التي كان يُشكلها على العالم النصراني آنذاك. أما الفصل التاسع والأخير فيتحدث عن النهضة العامرية ، والمقصود بذلك تجديد صورة هذا القائد التاريخي في عصرنا الراهن. ثم يختتم المؤلف كتابه بالتحدث عن

أسباب انهيار الخلافة الأموية في الأندلس. وهو يعيد ذلك إلى أسباب سياسية ، واقتصادية ، واجتماعية وبالأخص عرقية: أي الصراع بين العرب والبربر ثم انقسام الأندلس إلى عدة مناطق وحكومات متصارعة. وهو ما يعرف باسم حكم أمراء الطوائف. فكل أمير عربي أو بربري مسلم أصبح مشغولاً بمنافسة أو حتى محاربة أمير عربي آخر. وقد انتهز الاسبان هذه الفرصة التاريخية للانقضاض على المسلمين وتدمير دولتهم المجيدة في الأندلس. وعلى هذا النحو انهارت الأندلس العربية الإسلامية بعد أن أشعت على العالم لمدة ثمانية قرون تقريباً. ولا ريب في أن الكتاب يلقي إضاءات أكاديمية عميقة على كيفية حصول هذا الانهيار التاريخي وأسبابه).هـ. فلندَعْ المعجبين بالمغنين واللاعبين والهازلين والطواغيت والظالمين يذكرون من أخبارهم ويتغنون بأقوالهم وأفعالهم! ولندع الشعراء الهلافيت يملؤون دواوينهم بمسح الجوخ والتدشين للمنحرفين والساقطين! ولننأ بأنفسنا عن مثل هذا ولنعش مع الحاجب المنصور في سيرته لعطرة! وجاء في كتاب: (الأندلس ـ التاريخ المصور، للكاتب د. طارق السويدان ، الطبعة الأولى ، متحدثاً عن البطل المنصور بن أبي عامر ما نصه: (محمد بن أبي عامر المعافري (938 - 8 أغسطس 1002) ، الحاكم الفعلي للخلافة الأموية في الأندلس في عهد الخليفة الأموي المؤيد بالله. أسس محمد بن أبي عامر الدولة العامرية ولقب نفسه الحاجب المنصور. بلغت الدولة الأموية ذروة قوتها في عهده. هو أبو عامر محمد بن عبد الله بن عامر بن أبي عامر بن الوليد بن يزيد بن عبد الملك المعافري ، جاء من الجزيرة الخضراء: "حصن طرّش" إلى قرطبة طالبا للعلم. وكان بداية عهده ان استأجر دكاناً قريباً من القصر واستطاع بذكائه أن يميل الرجال الصقالبة إليه وأن يكتب الرسائل والتهاني إلى رجال القصر ، فلمع اسمه وذكر عند صبح البشكنجية فقربته إليها وجعلته قائماً على أعمال ولدها هشام ثم تولى رئاسة الشرطة وخزانة الدولة في عهد المستنصر بالله الحكم لبلائه في غزوات الحكم في المغرب الأقصى. انتدب ليكون قائماً على أملاك الأمير هشام بن الحكم بن عبد الرحمن الناصر ، واستطاع بذكائه وحنكته أن يصل إلى سُدة الحكم في الأندلس عن طريق صبح البشكنجية. فأخذ الوصاية على الأمير هشام ، وأصبح في عهده حاجب الدولة ، ثم المتصرف في كل شؤونها ، ولقب نفسه بالملك المنصور. أقام الدولة العامرية. وخاض عده حروب. استولى على ليون وبطريوس ولشبونة وغيرها من بلاد الفرنجة وشمال الأندلس ، توفي 392هـ ، وتولى الحكم بعده ابنه عبد الملك بن محمد العامري وبعد وفاته سقطت الدولة العامرية. بسبب ثورة الأندلسيين في قرطبة وسائر الأندلس ضد العامريين لتسقط دولة بني عامر ، ويبدأ عصر ملوك الطوائف. وبعد وفاة الحكم المستنصر بالله تولى ابنه هشام المؤيد بالله الخلافة عام 366هـ وعمره لا يزيد عن 11 عاماً ، فكان هذا خلل كبير بالدولة وإيذانا بسقوطها ، لذا في عام 977 أجُبر على ترك الخلافة لمحمد بن أبي عامر. وبعدها بعام أصبح أخذ اللقب الحاجب. وكان مما ساعد محمد بن أبي عامر على أن يصل إلى هذه المراتب العالية بهذه السرعة – بجانب هذه المواهب النادرة ـ أنه استطاع استمالة «صبح البشكنسية» أمَّ هشام المؤيد بالله ، وجارية الحكم المستنصر بالله ، بحُسن خدمته لها ولابنها ، وسعة بذله في الهدايا التي كان يُهديها دائمًا إليها ، فأتاها بأشياء لم يُعهد مثلها ؛ حتى لقد صاغ قصرًا من فضة وقت ولايته السكة ، وصرف فيه مالاً جسيمًا ، حتى جاء بديعًا ، لم تَرَ العيون أعجب منه ولا أحسن ، ثم حُمل إليها من دار ابن أبي عامر. على أن الحكم المستنصر بالله لم يكن غائبًا عن هذا كله ، فيُحكى أن الحكم المستنصر ظنَّ أن محمد بن أبي عامر يُتلف مال السكة (وزارة المالية) المؤتَمن عليه ،

فأمره الحكم بأن يُحضر المال الذي عنده ليراه بنفسه ، ويتأكَّد من عدم نقصانه ؛ ولذلك ذهب إلى الوزير ابن حدير ليُسلفه بعضاً من المال حتى يسانده في حالة نقصان المال ، وبمجرَّد أن تأكَّد الحكم من عدم نقصان المال ، فعندها عرف الحكم أنه قد أساء به الظنَّ ، وزاد إعجاب الحكم بأمانة ابن أبي عامر وحُسن تدبيره ، ورفع قدره عنده ، وأعاد ابن أبي عامر إلى الوزير ابن حدير مالَه ، وهو مع هذا كله يُحسن معاملة الحاجب (رئيس الوزراء) جعفر بن عثمان المصحفي ويُداريه ، ويطلب منه دائمًا النصح والمشورة. وأراد محمد ابن أبي عامر أن يقوي مركزه ، فخطب أسماء ابنة غالب ، وكان قد سبقه الوزير المصحفي إلى خطبتها ، لكن زوجها أبوها من محمد ابن ابي عامر. بعد معركة توريفيسينت عام 981 ، التي هَزم فيها أخر أعداءه غالب النصيري ، أخذ اللقب المنصور بالله. وبعد الانتصار في تلك المعركة ، أصبحت سيطرته على السلطة سيطرة مطلقة. وجعل نفسه قائداً للجيش في غزواته ضد شبه الجزيرة. وكان قد شارك في 57 غزوة وفاز في كل غزواته. وهناك في معركة ليون وهي من الغزوات الفاصلة التي قام بها الحاجب المنصور في قلب بلاد القوط ، فانطلق إليها عام 373هـ بنفسه ، فانتصر بها ، وأسر 3000 أسير ، وكانت هذه المرة الأولى التي يتم فيها فتح هذه المدينة بعد سقوطها بيد القوط ، بعد الفتح الإسلامي الأول قاد الحاجب المنصور الجيش بنفسه ، واتجه إلى ليون مباشرة فحاصرها وكان قد جاء إليها المدد من كل أرجاء بلاد الفرنج ومن فرنسة بشكل خاص ودارت المعارك حول ليون ليالي وأياماً ، وبقي الحصار الشديد الطويل حولها ، وأستشهد في القتال المرير هناك عدد كبير من المسلمين ، كما قتل من النصارى الكثير ومن قادتهم بشكل خاص حتى استطاع الحاجب المنصور أن يفتح ليون وبعد أن فتحها امر الحاجب المنصور أن يصعد المؤذنون ليرفعوا نداء الله أكبر الله أكبر فوق هذه المدينة الطاغية ، فأعاد إلى جنباتها صدى الاذان بعد انقطاع مائتي سنة. وفي معركة برشلونة استطاع المنصور أن يستولى على برشلونة عام 374 هـ. واستمر الحاجب المنصور ليفتح المغرب الأقصى عام 375هـ وقد أرسل أحد قادته واسمه الحسن السلمي فانتزع المغرب من بين أيدي الفاطميين ، وعين الحسن والياً بربرياً اسمه زيري بن عطية المغراوي ، ولكن زيري بن عطية خان الأمانة ، فاستأثر بحكم المغرب. ولكن داهية قام بإغراء أعوان زيري بالمال والسلطة ، فأعاد المغرب عام 386هـ تحت جناحه بسهولة ، فكانت الدولة الأموية بالأندلس بزمن الحاجب المنصور في أكبر توسع شهدته طوال زمن بقائها. وفي معركة سانت ياقب (شنت يعقوب) وفي آخر معاقل النصارى في الشمال الغربي من الأندلس ، تمتلك المرتبة الثالثة من المدن المقدسة عند النصارى ، فتسبقها القدس وروما. وهم يظنون أن بها قبر رمزي لأحد تلاميذ المسيح وهو "القديس يعقوب". وقد كانت شانت ياقوب محجا للإسبان وأهميتها كاهميه الكعبة عند المسلمين. ولقد وضع المنصور خطة برية بحرية ، بدأها من مدينة سالم ، وقاد جيشه وصولا لنهر "دويره" الذي أعد به سفن بها موارد ؛ ليمر الجند من خلالها ويأخذوا من مؤوناتها. الخطة البرية البحرية كانت تقضي بأن يخرج المنصور بجيشه متجهاً نحو هدفه وفي نفس الوقت يخرج جيش من السفن. فعندما يصل جيش المنصور إلى منطقة بحرية تقوم السفن بالاصطفاف خلف بعضها لبناء جسر يعبر من خلاله الجيش (لتوفير وقت بناء الجسور). وبعد أن ينتهي عبور الجيش تتجه السفن للعائق البحري التالي لتفعل نفس الشيء. ووصلت الأخبار لمدينة سانت ياقب ، ففروا من مدينتهم خوفا بسرعة تساوي سرعة جيش المنصور ، وتركوا خلفهم العديد من الغنائم. وبعد فتح المدينة عام 387هـ وبعد مسيرة 40 يوماً ، أمر الحاجب المنصور ألا تمس الكنائس ولا القبر

بأي سوء. واستطاع المنصور أن يسيطر على "صخرة بلاي" في طريق غزوه ، التي عجز المسلمون في زمن طارق ابن زياد وموسى ابن نصير عن السيطرة عليها. واستقر الحاجب المنصور في احدى غزواته بمدينة سالم وهو الثغر الذي بناه هو على حدود الإمارات القوطية في الشمال ، وخطرت له خاطرة تدل على مدى ذكائه وحسابه وتوقعاته ، فاستدعى أحد فرسانه في ليلة شديدة البرد ، كثيرة المطر وكلفه ان يخرج إلى مكان من المضيق سماه قرب المدينة وقال له: من مر بك في هذه الليلة تأتي به كائناً من كان فاستغرب الفارس- في نفسه بالطبع - ومن يخرج في مثل هذه الليلة؟ البرد القارس والمطر المنهمر. نفذ الفارس الأمر ، وبقي يرصد الطريق يرجف من البرد تحت وابل المطر ، وإذ بشيخ كبير من القوط الذين كانوا يعيشون في هذه المدينة من أهل الذمة ، على دابة ومعه آلة الحطب من فأس وحبل ، فسأله الفارس بعد أن استوقفه: إلى أين ايها العجوز في مثل هذا الوقت؟ وماذا تفعل؟ قال العجوز: أريد حَطباً لأهلي ليستدفئوا ، فتركه الفارس يواصل مسيره ، لكنه تذكر أمر الحاجب المنصور وحزمه فأوقف العجوز قائلاً: لابد أن تأتي معي إلى الأمير قال: وماذا يريد الأمير مني ؟ دعني أتابع سيري إلا أن الفارس أجبره على المثول بين يدي الحاجب ، فأمر بتفتيشه وتحري ملابسه فما عثروا على شيء مريب ، لكن المنصور أمر بتحري بردعة الحمار ، وبعد تحريها وجدوا فيها خطاباً من بعض القوط القاطنين في جهة من هذه المدينة يدلون العدو على عورة من عورات المسلمين كاتبين: أن اهجموا على مدينة سالم وعلى جيش المنصور من الجهة الفلانية - مكان سموه - ونحن سنساعدكم على تلك المباغتة. ولقد تملكت الدهشة الحارس ، واستفهم من أميره: وكيف عرفت أن هذا الجاسوس سيمر في تلك الليلة؟ فقال: وهل تنتهز العيون(الجواسيس) إلا أمثالها؟ ومن ملك البلاد عليه ان يسهر لحمايتها وحفظها ، ويعرف مداخل المتربصين بها ، فلما كان الصباح جمع أولئك الطابور الخامس ، فأمر بضرب أعناقهم وكذلك عنق ذلك الجاسوس. ولقد مات المنصور في إحدى غزواته بمدينة سالم ولا يزال قبره معروفاً فيها. وخلفه ابنه عبد الملك الملقَّب بالمظفر. وكان قد توفى عن 66 عاماً وأمر بجمع ما علق عليه من الغبار في غزواته ومواطن جهاده وجعل منها صرة وضعت مع حنوطه عند دفنه).هـ.)

غـرِّدْ بصِـيتك - فـي الآفـاق - فـي شَـمَمِ ... يـا مـن جَمعـت خِـلال الفضـل عـن رَغـمِ

وذاعَ صِـيتُك فـي الأصـقاع يُتحفهـا ... حتـى غـدوت بهـا نـاراً علـى علـم

وأشـرقت شمسُـك الغـراءُ فـي مـلأ ... رشـيدُهم أنـت محمـيٌ بمعتصـم!

لـم تـألُ جهـداً ، ولـم تُخِفـك خندمـة ... كـلا ، ولمـا تخـفْ مِـن هيبـة الحُكُـم

يـا أيهـا الحاجـبُ المنصـورُ مَعـذرة ... إن زلّ فـي وصـف مـا أتيتـه قلمـي

وصـفتُ عـاطفتي شـعراً أتيـه بـه ... لأنـه عـن همـام بـالغ العِظـم

خـاض المعـارك باسـم الله منتصـراً ... ولـم يفـر إذا بـأسُ الـوطيس حمـي

ناولـت جُنـدك أسـيافاً ومَجْلـدة ... وقلـت: مَـن يخـفِ الأعـداءَ ينهـزم

أوليـــتهم شـــرفَ الجهـــاد ، فـــانطلقوا ... نحـــو الكتائـــب فـــي عِـــز وفـــي شـــمم

فجاهـــــدوا وأديـــــمُ الأرض يغـــــبطهم ... فـــأحرزوا نصـــرَهم فـــي كـــل مُصـــطدم

وطـــاردوا الشـــرك فـــي بـــدو وحاضـــرة ... حتـــى تعـــم الـــورى شـــريعة الســـلم

حتـــى يعـــيش الـــورى فـــي خيـــر مَعدلـــةٍ ... ومَـــــن يُحَكـــــمْ كتـــــابَ الله يَســـــتقم

حتـــى تُـــرى الســـنة العصـــماء ظـــاهرة ... ويَقتـــدي أهلهـــا بالمصـــطفى الهشِـــم

يـــا أيهـــا (الحاجـــبُ المختـــار) تـــذكرتي ... بمـــا صـــنعت تشـــي بعـــاطر السِـــيَم

لـــــيَ الفخـــــارُ إذا ســـــردتُ سِـــــيرتكم ... بشـــــعر مفتخـــــر بالصـــــدق متســـــم

فلـــيس فيـــه مـــن العزيـــف خردلـــة ... أكـــرمْ بشـــعر دقيـــق الـــوزن محتـــرم!

وكنـــتُ ســـجّلتُ نـــذراً فـــي مقـــدمتي ... عـــن التقـــي النقـــي الفـــارس العلـــم

أجـــلّ قـــدرك لـــي فراســـة ورؤىً ... إجـــلالَ منـــدهش بســـيرة الحَشِـــم

وأمـــة السِـــلم للتـــاريخ كـــم ولـــدتْ ... مِـــن الأماجـــد مِـــن كهـــل ومُحـــتلم

نعـــم الرجـــالُ علـــى أيـــديهمُ ظهـــرتْ ... شـــريعة الله فـــي عُـــرب وفـــي عَجـــم!

كـــم غلبـــوا السِـــلم إن أعـــداؤهم جنحـــوا ... إليـــــه دون أذىً ، ودون ســـــفك دم!

ومـــا اســـتبدوا بـــآراءٍ ولا فرضـــوا ... علـــى الأنـــام أبـــاطيلاً مـــن الـــنظم

يـــا أيهـــا (الحاجـــب المختـــار) أنـــدلسٌ ... تُطريـــك فـــذاً حمـــى منظومـــة القـــيم

وتـــذكر العهـــدَ والميثـــاقَ مـــن زمـــن ... ومـــا عُرفـــت بـــه مـــن طيـــب الحكـــم

وإن (قشـــــتالة) لهـــــا مـــــدائحُها ... والـــنص لـــيس علـــى القـــاري بمـــنعجم

وإن (أنتيســـــة) بجهـــــدكم شـــــهدت ... شـــهادة بقيـــتْ فـــي ســـائر الأمـــم

وللغنـــــائم فحواهـــــا ورونقهـــــا ... ومَـــن يخـــض حربَـــه فـــي الله يغتـــنم

وقـــد أعـــدت ديـــاراً طالمـــا غصـــبتْ ... ولـــم يســـرْ مســـلمٌ فيهـــا علـــى قـــدم

فمـــن عُقـــودٍ وأهـــل الصـــلب قـــد غصـــبوا ... تلـــك الـــديار بفتـــوى خـــائني الـــذمم

حتـــــى أتيـــــت بـــــأمر الله تنقـــــذها ... مـــن بعـــد أن قهـــرتْ فـــي المرتـــع الـــوخم

ولـــم تُســـالم إذ الأعـــداء مـــا جنحـــوا للسـلم ، بـل بـالغوا فـي الحـرب والقحـم

فلـــيس يُجـــدي ســـوى ســـيفٍ يـــؤدبُهم هـــو الـــدواءُ لمـــن يطغـــى علـــى الحُـــرُم

يـــا أيهـــا (الحاجـــبُ المنصـــورُ) كنـــت لديـــــوانى ســـراج هُـــدىً فـــي حالـــك الظلـــم

وكنـــت نبـــراس حـــق أستضـــيء بـــه إن عرقلـــت همتـــي ديـــاجر الغســـم

وكنـــت فـــي صـــفحة الـــديوان ســـيف هـــدى يُعيـــدُ مـــا غصـــبتْه كـــف مجتـــرم

قصـــيدتي اليـــوم تُطـــريكم وتكْبـــركم علـــى (البســـيط) أتـــتْ رطيبـــة الـــنغم

عليـــك يا(حـــاجبي المنصـــور) مغفـــرة مـــن المليـــك وآلافٌ مـــن الـــرُحُم

للهـــم فـــاغفرْ لـــه الـــذنوبَ أجمعَهـــا واغفـــرْ لـــه مـــا أتـــى مـــن ســـائر اللمـــم!

وقـــد جعلـــتُ ثنـــائي والـــدعاء لـــه ورحمـــة الله والغفـــران مختتمـــي

نبذة عن الشاعر

(الشاعر / أحمد علي سليمان عبد الرحيم ، ولد في جمهورية مصر العربية ـ محافظة بورسعيد ـ تقاطع شارعي روس وأسوان ، في يوم 15 / 10 / 1963م. تخرّج في كلية الآداب – قسم اللغة الإنجليزية ـ جامعة المنصورة ـ مايو عام 1985م. والشاعر بدوي صَعيديٌ قح أباً وجداً وأعماماً من بيت خليفة ـ الكولة ـ مركز أخميم ـ محافظة سوهاج. معلم لغة إنجليزية ـ لم يُقدمه للناس أحد! وإنما قدمه شعره بتوفيق الله – سبحانه وتعالى ـ!

ويمكننا إجمال الكتب والدواوين في هذه القائمة:

أولاً: دواوين الشعر

1 – نهاية الطريق: (ديوان شعر).
2 – عزيز النفس: (ديوان شعر).
3 ـ سويعات الغروب: (ديوان شعر).
4 – القوقعة الدامية: (ديوان شعر).
5 ـ ترنيمة على جدار الحب: (ديوان شعر).
6 – الأمل الفواح: (ديوان شعر).
7 – من وحي الذكريات (1): (ديوان شعر).
8 – الصعايدة وصلوا: (ديوان شعر).
9 – ذل الجمال: (ديوان شعر).
10 – ماسحة الأحذية: (ديوان شعر).
11 – دموع التصبر: (ديوان شعر).
12 – عتاب وشكوى: (ديوان شعر).
13 – فأعِضُّوه ولا تكنوا: (ديوان شعر).
14 – الشعر مسبحتي وتغريدتي: (ديوان شعر).
15 – غادة اليمن: (ديوان شعر).
16 – عزة الخير: (ديوان شعر).
17 – منار الخير: (ديوان شعر).
18 – غربة وحَربة وكُربة: (ديوان شعر).
19 – الطبيبتان: (ديوان شعر).
20 – عجبتُ من قدرة الله تعالى: (ديوان شعر).
21 – أعلام الأرض المقدسة: (ديوان شعر).
22 – كالقابض على الجمر: (ديوان شعر).
23 – من وحي الذكريات (2): (ديوان شعر).
24 – خانك الغيث: (ديوان شعر).

ثانياً: الكتب الأدبية

1 ـ قراءة أسلوبية في شعر الصحابي الجليل المخضرم: حسان بن ثابت الأنصاري (رضي الله تعالى عنه).
2 – قراءة أسلوبية في شعر أحد أغربة الجاهلية: عنترة بن شداد العبسي.
3 ـ السيرة والمسيرة (دراسة نقدية لحياة التابعية الأميرة: زبيدة بنت جعفر بن المنصور) (رحمها الله).
4 ـ ترجمة الشاعر أحمد علي سليمان عبد الرحيم.

ثالثاً: الكتب الإنجليزية

1. Proofreading Drills (1-12)

2. Reading Drills (1-50)

3. Reading Quizzes (1-111)

4 – Airborn (Story Analyzes with Vocabulary Drills)

5 - Allied with Green (Story Analyzes with Vocabulary Drills)

6 - Conversation Skills

7 - Correction Exercise (1-100)

8 - Frederick Douglass (Story Analyzes with Vocabulary Drills)

9 - Grammar Tasks (1-77)

10 - Harriet Tubman (Story Analyzes with Vocabulary Drills)

11. Kensuke' s Kingdom (Story Analyzes with Vocabulary Drills)

12. Punctuation Tasks (1-56)

13. Reorder Quizzes (1-34)

14. Two Legs or One (Story Analyzes with Vocabulary Drills)

15. Writing Practices (1-76)

16. Eleanor Roosevelt (Story Analyzes with Vocabulary Drills)

17. Roughing It (Story Analyzes with Vocabulary Drills)

18. Raymond's Run – Toni Bambara

19. Clean Sweep (Story Analyzes with Vocabulary Drills)

20. The Treasures of Lemon Brown (Story Analyzes with Vocabulary Drills)

21. O' Captain! My Captain! (Story Analyzes with Vocabulary Drills)

22. The Ransom of Red Chief (Story Analyzes with Vocabulary Drills)

In addition to hundreds of social essays to enrich the students backgrounds in

English and make them love English! & 77 Translation Passages!